الزرقاوي.. الجيل الثاني للقاعدة (10):

عمليتا نيروبي ودار السلام باغتتا الادارة الامريكية... وواشنطن ارتكبت خطأ عندما ركزت على الزرقاوي الظواهري أقنع بن لادن بتوسيع مفهوم الحرب مع أميركا والملا عمر لم يكن راضيا عن الجبهة العالمية

فؤاد حسين*

■ الشخصية التي يتناولها هذا الكتاب فرضت أنماطا مختلفة من صنوف التصنيف، تارة أسلوب البحث العلمي المعتمد على القراءة والبحث والتمحيص والتلخيص، وقد أخذ هذا الأسلوب نصيبه في فصول هذا الكتاب، وتارة أخرى الاستماع إلى شهادات العشرات ممن عرفوا الزرقاوي أو رافقوه في مختلف محطات حياته، وهذا أخذ وقتا طويلا بين تدوين تلك الشهادات، ومن ثم تدقيقها، وتمحيصها، ومقارنة الشهادات بعضها ببعض، للوقوف على المعلومة الدقيقة لاستخدامها بعد التحقق من صحتها، وطرح المعلومة الضعيفة واستبعادها، ما لم نستطع التثبت منها، وتارة أخرى الطلب من أشخاص بعينهم أن يكتبوا بأنفسهم إجاباتهم على أسئلة طرحناها عليهم، لكن الشاق في هذا الجانب كان الوصول إلى هؤلاء الأشخاص ممن لهم بصمات واضحة، سواء في تشكيل فكر الزرقاوي أو تشكيل منهجه واستراتيجيته، وكانت هذه المرحلة الأصعب من الكتاب، إذ باتت إمكانية الاتصال مع هؤلاء صعبة للغاية، إن لم تكن شبه مستحيلة، بعد الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)، فغالبيتهم إما في السجون أو مطاردون أو مختفون، لكن دون تدوين شهاداتهم، لن يكون للكتاب إضافة معتبرة، فآثرنا تأخير الكتاب شهورا عدة إلى أن وصلنا إلى مبتغانا، وضمنا الكتاب ثلاث شهادات تغطي مراحل تطور مسيرة الزرقاوي.

الشهادة الأولى كانت لأبي المنتصر بالله محمد، وهو الشخص الأول الذي بدأ الزرقاوي معه بناء التنظيم الأول الذي أسسه أبو مصعب عام 1993، وهو تنظيم التوحيد، الذي عُرف لاحقا باسم (بيعة الأمام)، مسجلا بالتواريخ والأسماء والأحداث كل ما تم حتى عام 1999. فآثرنا تلخيص هذه الشهادة دون التدخل في مضمونها، ذلك أن الكثير مما ذكره لم يعد سرا يحمل صفة الجدة، إن لم أقل أنه سبق أن نشر مضمونه بعموميته، لذلك أبقينا على المعلومات التي طرحت للمرة الأولى، وعلى الانطباع الشخصي لصاحب الشهادة وموقفه من تلك الأحداث التي دونها.

الشهادة الثانية كانت للأب الروحي للزرقاوي عصام البرقاوي (أبو محمد المقدسي) الذي التقاه في الباكستان عام 1989، واتفق معه هناك على تشكيل تنظيم ديني في الأردن، وبقي معه في السجن، بادئا معه كرفيق درب وصديق، ثم شيخه الذي ينظر لفكرة التنظيم ويضع أدبياتها، ثم كتابع له بعد أن أصبح الزرقاوي أميرا للمجموعة داخل السجن، ثم منتقدا له وناصحا عن بعد، هو في سجنه بالأردن والزرقاوي في العراق.

الشهادة الثالثة، وهي الأهم كانت للرجل الثالث في القاعدة محمد مكاوي (سيف العدل) الذي يلقي من خلال شهادته الضوء على القدوم الثاني للزرقاوي إلى أفغانستان عام 1999، وأسباب الخلاف بين الزرقاوي وبن لادن، وكيف تم إنشاء معسكر خاص للزرقاوي في هيرات، مبينا طبيعة العلاقة التي كانت قائمة في تلك الفترة بين قيادة القاعدة والزرقاوي، وصولا إلى ضربة الحادي عشر من ايلول (سبتمبر)، وأهداف القاعدة من وراء هذه الضربة، موضحا كم تحقق من تلك الأهداف، مرورا باحتلال أفغانستان والخروج إلى باكستان وإيران، كاشفا طبيعة الدور الذي لعبته طهران حينذاك، وبعد ذلك قرار إدخال الزرقاوي إلى العراق والتحضيرات التي سبقت ذلك. وفي محاولة لاستشراف مستقبل القاعدة في العراق من خلال تطور تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين تتبع الكتاب محطات تطور عمل، وشخصية الزرقاوي، خلال السنوات الثلاث الأخيرة. معتمدين معلومات دقيقة تطلب الوصول إليها استقصاء دقيقا وحثيثا، لكل من كان على تماس مع الزرقاوي خلال تلك السنين. وللوقوف على مستقبل الحرب المفتوحة بين القاعدة، وواشنطن التي تطلق على حربها تلك مصطلح محاربة الإرهاب الدولي، حاورنا العديد من منظري القاعدة سواء ممن ساهموا في صنع استراتيجياتها في وقت سابق أو من باتوا من صناع قراراتها لاحقا، واستمعنا إلى كل ما يجول بخاطرهم، لنرسم للقراء استراتيجية القاعدة حتى عام 2020، والوسائل التي أتبعوها، والخطط التي وضعوها للوصول إلى تحقيق هذه الاستراتيجية.

التضييق على بن لادن

لم يتقيد الشيخ أسامة بالحظر التي فرض عليه بعد القائه للمحاضرة التي حذر فيها من أطماع صدام حسين، فواصل القاء المحاضرات، وعقد عددا كبيرا من الاجتماعات مع العلماء والدعاة والناشطين في مجال الدعوة. لم يكن ذلك مقبولا لدى السلطات، فاستدعته أكثر من مرة ووجهت له تحذيرات شديدة بوجوب الالتزام بتجميد نشاطه. ومن أجل تخويفه أرسلت السلطة مفرزة من الحرس الوطني في جدة لاقتحام مزرعته الواقعة في ضواحي جدة وتفتيشها بشكل فجائي، حيث لم يكن نفسه موجودا فيها لحظة الاقتحام. وقامت المفرزة باعتقال بعض العمال في المزرعة (أطلقوا بعد ذلك) وكتابة محضر عما وجدته فيها وتصوير كامل المزرعة ومخازنها ومرافقها بالفيديو. عندما أخبر الشيخ أسامة بالحادث كتب رسالة احتجاج شديدة للأمير عبد الله. واستغرب الشيخ أسامة حين ورده رد من الأمير عبد الله ينفي فيه علمه بالحادث ويعد بمعاقبة المسؤول عنه.

كان لسياسة التضييق التي أتبعتها الحكومة السعودية ضد أسامة بن لادن بشكل خاص، وتطور الظروف الموضوعية في البلاد عامل قوي دفعه للتفكير جديا بمغادرة البلد، لكن أنى له ذلك وهو ممنوع من السفر وكل تحركاته تحت المجهر.

أمر آخر لم يكن يتحمله وهو هذه القوات المقيمة في جزيرة العرب . وظن أنه يتناقض مع نفسه إن زعم أنه جاهد الكفار في أفغانستان لاحتلالهم بلدا مسلما بينما هاهم في جزيرة العرب التي لها حرمة إضافية على باقي الأرض.

تحمل الشيخ أسامة بمرارة فترة الحرب «عاصفة الصحراء» ثم وصل إلى قناعة أنه لا يمكن أن يكون صادقا مع نفسه إذا استمر في مكوثه في السعودية. لم يكن هروبه أمرا سهلا فهو شخصية معروفة وبيته تحت الحراسة الدائمة. لذلك فكر الشيخ أسامة بطريقة أقرب للأسلوب الطبيعي.

كان أحد أخوته مقربا من الأمير أحمد بن عبد العزيز نائب وزير الداخلية. تحدث الشيخ أسامة مع أخيه شارحا له أن لديه التزامات مالية كثيرة في باكستان ومناطق أخرى، وحقوقا ينبغي أن تدفع لأصحابها وحقوقا له ينبغي استعادتها، وأنه لا يمكن أن يحل هذه الإشكاليات وكيل، لأن بعضها قائم على الثقة والعلاقة الشخصية جدا. اقتنع أخوه بالفكرة ووعد بشرح ذلك للأمير أحمد. كان الأمير نايف على وشك أخذ إجازة فانتظر أخوه إجازة نايف وتحدث مع الأمير أحمد فعلا، واستطاع إقناعه بإعادة الجواز والسماح له بالسفر. وافق الأمير أحمد وسمح له بسفرة واحدة وكلف الجهات الأمنية بمتابعته. وهكذا استغنى الشيخ أسامة عن أسلوب الهرب والتخفي وتمكن من مغادرة البلد بشكل طبيعي.

حينما وصل الشيخ أسامة إلى باكستان كان أول عمل قام به هو كتابة رسالة اعتذار رقيقة لأخيه يخبره أنه لا يخطط للعودة، وأنه سيسبب له حرجا أمام الأمير نايف واعتذر له أن الثمن غال يستحق اللجوء لمثل هذا الأسلوب.

وخلال بقائه في أفغانستان كانت المخابرات السعودية بقيادة الأمير تركي تتعاون مع المخابرات الباكستانية لقتله أو اختطافه، لكن كل المحاولات فشلت لأن المتعاطفين معه من جهاز الأمن الباكستاني وأجهزة الدولة الأخرى كانوا يعجلون بتسريب المعلومة له فيأخذ حذره.

بقي بن لادن في أفغانستان عدة أشهر مستمرا في محاولاته حل الخلاف ووصل بعد فشل متكرر إلى طريق مسدود. شعر الشيخ أسامة أن وجوده في أفغانستان عديم الفائدة خاصة وأن المتربصين به كثر وسيستمرون بمحاولات خطفه أو اغتياله. وبعد تدارس الوضع مع عدد من المقربين له قرر البحث عن مكان آخر يقدم فيه نفعا للإسلام بدلا من أفغانستان.

في السودان

كان التوجه إلى السودان أحد الخيارات المطروحة للشيخ أسامة، ليس لأنه سيكون قاعدة جديدة لمشروع جديد، ولكن لأنه سمع الكثير عن هذه الدولة الجديدة التي بدأ الإسلاميون يتحدثون عن حماسها للإسلام والمسلمين، وحرصها على تطبيق مشروع إسلامي . وظن الشيخ أسامة أنه يستطيع أن يقدم شيئا لهذه الدولة من خلال قدراته التجارية والإنشائية وعلاقاته في المملكة والخليج ، فضلا عن إنه يؤمن ملاذا له بديلا عن أفغانستان.

توجه الشيخ أسامه فعلا إلى السودان بطيارة خاصة وبرحلة سرية وذلك في نهاية سنة 1991. وفي تلك الرحلة اصطحب معه عددا من رفاقه إلى السودان والتحق به آخرون بطرق أخرى.

في السودان أحسنت الحكومة استقباله، ولكنه في تلك المرحلة لم يكن بحاجة لأي دعم مادي، لأن أمواله لا تزال تحت سيطرته. وتمكن بشكل طبيعي من نقل جزء من أرصدته ومعداته من المملكة إلى السودان.

لم يساهم الشيخ أسامة في السودان بأي عمل عسكري لكنه ساهم بقوة في مشاريع طرق وإنشاءات ومزارع وغيرها، وكان أشهرها طريق التحدي من الخرطوم إلى بور سودان.

رغم أنه خرج من المملكة بالطريقة المذكورة، ورغم أنه تعرض للاختطاف والقتل في أفغانستان من قبل أجهزة الحكومة السعودية، إلا أنه لا يعلن موقفا معاديا للحكم، ويحتفظ بالموقف لنفسه، رغبة في أن لا ينقطع عن الشخصيات الدعوية والتجارية وبعض أهل النفوذ في المملكة. وكانت تلك السياسة نافعة فعلا حيث نجح الشيخ أسامة في إقناع عدد كبير منهم بالتحرك لدعم السودان والاستثمار فيه. وخلال تلك الفكرة عرضت عليه أكثر من مرة العودة للبلد وأعطي ضمانات ولكنه لم يرحب بالفكرة أبدا.

بدأ الاهتمام يزداد به بشكل ملحوظ نهاية سنة 1992 حين صدر أمر بتجميد أمواله. بعدها تحولت قضية الشيخ أسامة إلى قضية ساخنة على جدول أعمال المخابرات الأمريكية وأصبحت تثار بشكل منتظم بين الأمريكان والسلطات السعودية. ازدادت الضغوط على الشيخ أسامة بالعودة وحاولت السلطة إحراجه من خلال الضغط على أهله وابتزازه بهم دون نتيجة.

وحين يأست الحكومة السعودية من إعادته، أصدر الملك فهد قرارا بسحب جنسيته بداية عام 1994.

بعد أحداث الصومال وانفجار الرياض بدأت إقامته في السودان بعد 1994 تسبب حرجا شديدا للحكومة السودانية، التي تعرضت لضغط شديد من أمريكا ودول عربية لإخراجه أو لتسليمه. وتحمل السودانيون الضغوط، لكن كان واضحا أن السودانيين ليس عندهم استعداد للصبر طويلا، وبدأوا يضغطون على الأفغان العرب للخروج من السودان. وكان الشيخ أسامة على علم بالضغط الذي تعرضت له السودان، لأن السودانيين كانوا يحيطونه علما بذلك، وصارحوه مرة أنه يجب أن يفكر بالخروج، بعد أن تعاظمت على السودان الضغوط الأميركية والسعودية، فكتب رسالته إلى الملك فهد في الثالث من آب (أغسطس) عام 1995 يحثه فيها على إجراء إصلاحات حقيقية

عندما أحس الشيخ أسامه أن السودانيين لم يعودوا يحتملون بقاءه ويخجلون من مصارحته بذلك، بادر من تلقاء نفسه بترتيب عملية الخروج من السودان. وبعد أن أمن أسامة موقعا له في جلال آباد، أعد العدة لمغادرة السودان في عملية غاية في السرية. ومن أجل ذلك أعد طائرة خاصة حملته مع عدد من أنصاره إلى أفغانستان حيث استقبل هناك من قبل الشيخين يونس خالص وحقاني. وبعد وصوله هناك أرسل رسالة إلى الفصائل الأفغانية يخبرهم أنه لا يزال على التزامه بعدم الدخول في خلافاتهم وصراعاتهم. وكان ذلك قبل أن يستولي الطالبان على جلال آباد ومن ثم على كابل.

ومنذ أن وصل هناك بدأت الأحداث تتتابع مرة أخرى بشكل دراماتيكي، من انفجار الخبر إلى استيلاء الطالبان على جلال آباد إلى محاولة خطف الشيخ أسامة إلى بيان الجهاد ضد الأمريكان الذي أصدره في تشرين الثاني (نوفمبر) 1996.

انفجار الخبر

في حزيران (يونيو) من عام 1996 هز مدينة الخبر انفجار كبير أودى بحياة عشرين من العسكريين الأمريكان وجرح مئات آخرين ، بعد انفجار الخبر بفترة بسيطة أصدر الشيخ أسامة بيانه الأول بعنوان «إعلان الجهاد لإخراج الكفار من جزيرة العرب».

في تلك المرحلة حاول السفير السعودي في إسلام آباد الضغط على يونس خالص وحقاني لتسليم الشيخ أسامة وحاول إغرائهم بعروض معينة لكن رد يونس خالص كان حاسما. قال يونس خالص لو لجأ إلينا عنز أو حيوان لحميناه فكيف برجل باع نفسه وماله في سبيل الله والجهاد في أفغانستان.

بعد ذلك اجتاح الطالبان المنطقة التي كان الشيخ أسامة مقيما فيها وكان الشيخ أسامة قد عرف شيئا عنهم لأن يونس خالص وحقاني كانا قد انضما إلى طالبان واعتبرا نفسيهما من جيش الطالبان لكن لم يكن الشيخ أسامة على علم بما سيصبح وضعه بعد أن أصبح في المنطقة التي تحت سيطرتهم. لم يدم انتظار الشيخ أسامة طويلا حتى أرسل ملا عمر زعيم طالبان وفدا لمقابلة الشيخ أسامة ولطمأنته واعتباره ضيفا موروثا من الذين قبله وتعهد له بالحماية، لكنه طلب منه على شكل رجاء التوقف عن أي نشاط إعلامي لأن الشيخ أسامة كان قد قابل محطة (سي إن إن) ومحطة القناة الرابعة البريطانية في تلك الفترة.

التطور الآخر الذي حصل بعد ذلك والذي اضطر الشيخ أسامة للانتقال إلى قندهار هو محاولة الاختطاف التي تسرب خبرها للشيخ أسامة وأجهضت قبل أن تنفذ، حيث تم تمويل مرتزقة من القبائل على الحدود الباكستانية الأفغانية لتنفيذ هجوم سريع على المنطقة التي يقيم فيها الشيخ أسامة وخطفه أو قتله، وساهمت باكستان ودول أخرى بترتيب العملية. تسرب خبر العملية بسرعة للشيخ أسامة فرتب أمره على وجه السرعة للانتقال إلى قندهار حيث أكثر أمنا في ظل الطالبان.

في افغانستان

بينما كان الشيخ أسامة في جلال آباد، دخل الطالبان كابل دون قتال تقريبا. وبذلك أصبحت طالبان هي القوة الأكبر في أفغانستان رغم الاعتراف المحدود بها. في غضون ذلك كان الشيخ أسامة يخطط للانتقال إلى قندهار ليكون في مأمن من محاولة الاختطاف التي ذكرناها سابقا. جاء هذا التطور ليسهل مهمة انتقال الشيخ أسامة إلى قندهار لأنه انتقل إليها عبر كابل التي وصلها بالسيارة ومنها إلى قندهار بالطائرة. وهناك حرص بن لادن على أن يقابل أمير الطالبان ملا عمر شخصيا، لأنه إلى حد تلك اللحظة لم يكن قد قابل ملا عمر رغم المراسلات الكثيرة بينهما. في هذا اللقاء تحدث ملا عمر عن التحديات الخطيرة التي تواجه الطالبان بعد دخول كابل وخاصة مواجهة قوات دوستم، وقال للشيخ أسامة إنه قد يكون من الأولى تخفيف الحملة الإعلامية، وأن ذلك مجرد طلب وليس أمرا ولا إلزاما. رد عليه الشيخ أسامة بأنه قرر التخفيف أو التجميد الكامل للنشاط الإعلامي لفترة حتى قبل أن يطلب منه فارتاح ملا عمر لذلك.

في تلك الأثناء كانت الحكومة السعودية قد اعترفت بطالبان فيما يعتقد أنه محاولة إحراج لطالبان للتعاون معها في قضية الشيخ أسامة. ذهبت الحكومة السعودية شوطا أبعد حين أرسلت تدعو كل أعضاء حكومة طالبان والملا عمر شخصيا للحج والعمرة، وتستضيفهم كضيوف رسميين. بل إن أحد الشخصيات الرئيسية في حكومة طالبان وهو محمد رباني رئيس الوزراء زار المملكة فعلا لأداء الحج، لكن يبدو أن «حسن الضيافة» لم يغير من مواقفه ولا مواقف حكومته. لم يتغير موقف طالبان من الشيخ أسامة، وردت بأدب عدة وفود أرسلتها الحكومة السعودية تفاوتت بين دبلوماسيون ورجال أعمال وأقارب الشيخ أسامة وشخصيات استخباراتية.

تطور آخر حصل في تلك الأيام أدى إلى رفع أسهم الشيخ أسامة عند الطالبان، وهو تغيره في موقف الحياد الذي التزم به في خلافات الفصائل الأفغانية، واتخاذه قرار بالدخول بقوة مع الطالبان ضد دوستم، ووجه أوامر لرجاله بالقتال مع الطالبان. وبعد أن أصر شاه مسعود أن يدخل طرفا في الحرب استصدر الشيخ أسامة فتوى من طلبة العلم المرافقين له فتوى بأن قتال مسعود جهاد شرعي. كان لهذا القرار دور مهم في مساعدة الطالبان، حيث إن الطالبان لم يكونوا رتبوا أنفسهم بعد، وكل انتصاراتهم الأولى حصلت تقريبا دون قتال بسبب حرص الناس عليهم، وتنازل القادة الميدانيين لهم، أما دوستم ومسعود فقواتهما أكثر تماسكا لأنهما أقنعا أتباعهما أن الحرب عرقية وليست دينية، وساعد على تماسكهم اعتماد دوستم على الأوزبك ومسعود على الطاجك، وسعى مسعود ودوستم إلى اقناع أتباعهما أن الطالبان ليسوا إلا بشتون، يريدون السيطرة عليهم. أضف إلى ذلك أن العالم الغربي لم يشعر بخطورة طالبان إلا بعد سقوط كابل، وحمايتهم للشيخ أسامة، ودعا ذلك إلى أن يحظى مسعود ودوستم بدعم سخي من روسيا وأمريكا وتركيا وإيران وجهات أخرى. كاد الطالبان أن ينهاروا بعد أن واجهوا هذه القوات المنظمة المدعومة والمتماسكة، وفي مرتين على الأقل كانت تلك الكتائب التابعة للشيخ أسامة هي التي ردت تلك القوات عن كابل، فحفظها له الطالبان وارتفع سهمه عندهم.

قضية أخرى رفعت أسهمه عندهم هو تفريغه لعدد من الشباب المتخصصين لمساعدة الطالبان في قضايا التخطيط والإدارة والتنمية للدولة الجديدة، حيث إنه رغم تواضع المجموعة التي مع أسامة، إلا أنها بالنسبة لطالبان كانت فريقا من أساتذة الجامعات.

لم ييأس الأمريكيون وحلفاؤهم من محاولة الإمساك بالشيخ أسامة. وبعد أن تبين أن إقناع الطالبان بتسليمه مستحيل، فكر الأمريكيون مع الباكستانيين والسعودية بإعداد خطة لخطف الشيخ أسامة، عن طريق عملية كوماندز منطلقة من الأراضي الباكستانية. بدأ التدريب على العملية في نهاية ربيع عام 1997 على أن يتم التنفيذ في بداية الصيف، وتم التكتم على العملية بشكل شديد، لكن بسبب دخول الباكستان طرفا، فقد كان حفظ السر مستحيلا، لأن المخابرات العسكرية الباكستانية فيها تعاطف كبير مع الشيخ أسامة. تسرب الخبر للشيخ أسامة وجهات عربية أخرى، فبادرت بتسريبه للصحافة فانفضحت الخطة الأمريكية وألغيت. الأمريكان لم يعترفوا بالقصة ابتداء، ولكن اعترفوا بها بعد ذلك وأوعزوا إلغاء الفكرة إلى الخوف من وفيات في صفوف الأمريكان.

في نهاية عام 1997 وبداية 1998 قرر الشيخ أسامة أن يستعيد نشاطه، فبدأ أولا مع علماء الطالبان والباكستان. نجح أسامة في استصدار فتوى من حوالي أربعين عالما من علماء أفغانستان وباكستان تؤيد بيانه لإخراج القوات الكافرة من جزيرة العرب.

الجبهة الاسلامية العالمية

تزامن تأسيس الجبهة الاسلامية العالمية مع تجمع عدد من قيادات الجماعات الاسلامية، وخاصة الجماعة الاسلامية المصرية والجهاد الاسلامي المصرية في أفغانستان، وتقاطر عدد كبير من الوفود من باكستان وكشمير على الشيخ أسامة. تمكن أيمن الظواهري من اقناعه بتوسيع مفهوم الحرب مع أمريكا الى قتال لها في كل مكان. وتوسعت القناعة لتشمل بدلا من مقاتلة أمريكا قتل كل أمريكي في سن القتال في كل زمان ومكان ومعهم الاسرائيليين ايضا. اقتنع الشيخ أسامة بالفكرة، بعد أن وضعوا لها مبررين أحدهما شرعي والآخر سياسي.

مبررهم الشرعي كان أن الأمريكان يحتلون بلاد الحرمين ولذلك فان كل أمريكي يعتبر داعما لاحتلال الجزيرة العربية، وبما أن الأمريكان والاسرائيليين يقاتلون المسلمين في كل مكان وزمان ويستبيحون دم المدنيين من المسلمين فان قتلهم مشروع أيا كان الزمان والمكان.

المبرر السياسي هو أن أمريكا أصبحت العدو الأول للاسلام وصارت تتربص بالمسلمين والجماعات الاسلامية الدوائر، ولم تعد هناك قوة تنافسها، ولذا فان من الضروري أن يشعر المسلمون أنهم أعداء لأمريكا، وأن تتحول هذه القضية لقضية اسلامية أولى في كافة أنحاء العالم الاسلامي.

تحولت القناعة الى عمل وذلك من خلال اصدار بيان الجبهة الاسلامية العالمية في شهر شباط (فبراير) عام 1998 الذي يدعو الى قتل الأمريكان والاسرائيليين في كل مكان وزمان. وقع البيان مع الشيخ أسامة بن لادن عن جماعة الجهاد المصرية الدكتور أيمن الظواهري وعن الجماعة الاسلامية المصرية رفاعي طه، كما وقعه رئيس أحد الفصائل الكشميرية وأحد القيادات الباكستانية المشهورة. وُزع البيان ونشرته الصحافة وكان علامة تحول كبيرة بالنسبة للشيخ أسامة من عدة نواح:

أولا: القفز الى مشروع عالمي بدلا من التركيز على قضية القوات الأمريكية في جزيرة العرب.

ثانيا: التخلي عن الحذر الذي كان يحرص عليه الشيخ أسامة في الموقف الشرعي، والاصرار على توسيع دائرة اباحة الدم.

ثالثا: دخول الشيخ أسامة لأول مرة طرفا في ما يشبه تحالف اسلامي من الجماعات الجهادية، بعد أن كان يعمل مع مجموعته ويرفض التحالفات المعلنة، مع اقراره لفكرة التعاون والتنسيق دون حلف معلن.

لم يكن ملا عمر راضيا عن هذه النشاطات واعتبرها خرقا للالتزام الأدبي الذي كان بينه وبين الشيخ أسامة. أرسل الملا عمر للشيخ أسامة يستفسر عن الذي حصل، فكان رده أن الظروف التي كانت سببا للهدوء الاعلامي قد انتهت، ولا داعي للاستمرار في الصمت، واستخدم الشيخ أسامة ورقة العلماء لتقوية موقفه وذلك، لأن العلماء لدى طالبان لا يرد كلامهم رغم احترامهم جميعا للملا عمر.

غضب الملا عمر لكن كظم غيظه وحاول الاستمرار في اقناع الشيخ أسامة بالصمت. بدلا من الصمت اتخذ الشيخ أسامة موقفا تصعيديا. حيث دعا الى مؤتمر صحافي في شهر أيار (مايو) 1998 رتب له سرا في منطقة قرب الحدود مع باكستان في ضواحي خوست، ودعي له عدد محدود من الصحافيين. اضافة لذلك فقد كان الشيخ أسامة قد أعطى مقابلة مطولة لمحطة ABC الأمريكية قبيل المؤتمر بأيام. في المؤتمر وفي المقابلة أشار الشيخ أسامة الى احتمال حصول حوادث ضد الأمريكان خلال فترة قصيرة، ولم يحدد أين.

أرسل الملا عمر الى الشيخ أسامة مرة أخرى يعترض على ما حصل ويطلب منه تفسيرا. لم يكن لدى الشيخ أسامة أي أسلوب يقنع به الملا عمر الا العلماء، وفعلا رد عليه انه يقبل بتحكيم العلماء. رفض الملا عمر الفكرة، ليس عدم اعتبار للعلماء، لكن منعا لفتح هذا الباب، بحيث كل ما بدا لشخص أن يتمرد يقول نحتكم للعلماء. توترت العلاقات بين الرجلين، لكن الملا عمر الذي كان يستطيع منع الشيخ أسامة من النشاط الاعلامي فضل التحمل والاعتماد على الاقناع الى أجل مسمى.

عمليتا نيروبي ودار السلام

بعد تصريحات الشيخ أسامة بن لادن بأنه سيضرب خلال أسابيع، بقي الأمريكان في حالة ترقب وتأهب تحسبا لأي هجمات، ولكن كل استعداداتهم كانت في المنطقة العربية والخليج، والى حد ما في القرن الأفريقي. وبينما الأمريكان في كامل التأهب، أتتهم الضربة في الموقع الذي لم يتحسبوا له، في سفارتيهم بكينيا وتنزانيا وذلك حين نسفت السفارتين شاحنتان ممتلئتان بالمتفجرات يوم الثامن عشر من تموز (يوليو) 1998.

رغم الحذر الذي ورد على لسان الناطقين الرسميين الأمريكان في وقتها عن اتهام جهات محدودة، فان الجهات الاعلامية والخبراء السياسيين والمصادر الرسمية التي ترفض ذكر اسمها، تبرعت بكمية كبيرة من التعليقات والمعلومات والتحليلات التي تساعد في دراسة انعكاسات هذا الحدث. وعند تأمل ما صدر عن تلك الجهات يلاحظ الآتي:

أولا: كانت الحركات الاسلامية أو ما يسمى في الغرب بالأصولية الاسلامية في مقدمة المتهمين، بل ان كل الجهات الأخرى مثل ايران والعراق وليبيا استبعدت بسهولة، وتحدثت جهات كثيرة عن الشيخ أسامة بن لادن وجماعة الجهاد المصرية، وأشير بشكل كثيف الى تهديدات الشيخ أسامة بن لادن في مقابلة مع محطة ABC الأمريكية بضربة خلال أسابيع، كما أشير الى بيان جماعة الجهاد الذي نشر في صحيفة عربية قبل يومين من الانفجار، وربط بين الشيخ أسامة والجهاد المصرية من خلال بيان «الجبهة الاسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين» الذي كانت تلك الجهتان من بين الموقعين عليه.

ثانيا: أعادت تلك التفجيرات فتح ملف انفجار الخبر، ولم يعلن عن المسؤولين عنه لحد ذلك التاريخ. ولوحظ للمرة الأولى في الصحافة الأمريكية النسبة لمسؤولين أمريكان أن أمريكا تعتبر الشيخ أسامة مسؤولا عن انفجار الخبر، بل وحتى عن انفجار الرياض. وكانت المصادر الأمريكية في السابق تكتفي بالتشكيك بالرواية السعودية عن تورط شيعة وايران، وتشير الى احتمالية وجود معارضة داخلية مسؤولة عن انفجار الخبر.

ثالثا: لوحظ في التعليقات الصحافية والدراسية أن الحادثين رُبطا بالوجود الأمريكي في المنطقة عموما وفي السعودية خصوصا، وربطا بسياستها مع اسرائيل والعراق، ودعمها للحكومات في المنطقة، وتعاونها في القبض على مطلوبين من الاسلاميين وتشجيع اعتقال آخرين. من جهة ثانية بدا لهذه القضية أهمية من خلال احراج الأنظمة العربية المتعاونة مع أمريكا في سياستها ضد الاسلام، حيث ساد شعور لدى تلك الأنظمة أن هؤلاء الجهاديين تجاوزوهم الى أسيادهم الأمريكان، بمعنى أن لديهم من القدرات اللوجستية أكبر من مجرد مواجهة تلك الأنظمة، وهذا فيه درجة عالية من الاحراج.

ومع كثرة القرائن على مسؤولية جهات اسلامية معينة عن الحادث الا أن الجهات المعروفة لم تعلن مسؤوليتها عن الحادث، ولم يخرج رسميا الى العلن الا بيان ما يسمى «بالجيش الاسلامي لتحرير المقدسات»، وهو اسم غير معروف من قبل، لكن محتوى البيان يربط مباشرة بالجماعات التي اجتمعت حولها القرائن. فالبيان هاجم السياسة الأمريكية وطالب بمغادرة القوات الأمريكية لجزيرة العرب وطالب باطلاق سراح الشيخ عمر عبد الرحمن، وذهب البيان أبعد من ذلك في تحديد هوية من اصدره

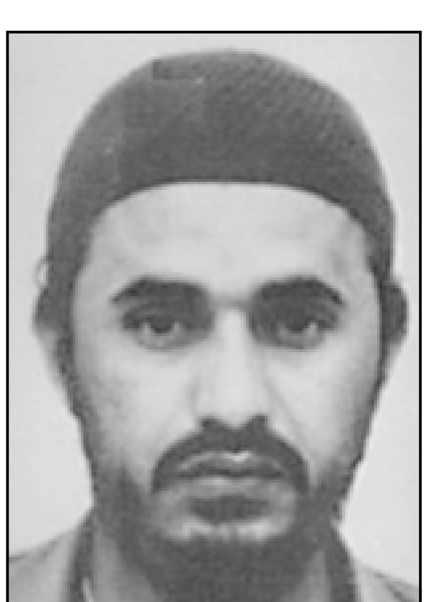

ابو مصعب الزرقاوي

بالمطالبة باطلاق سراح المشايخ المعتقلين في سجون السعودية آنذاك من أمثال الشيخين سلمان وسفر. ولربما تكون الجماعات التي تنفذ مثل هذه الأعمال فهمت آنذاك أن الرسالة يمكن ايصالها دون تبني العمل علنا، فالأمريكان والأنظمة العربية عرفوا من خلال القراءة المخابراتية للبيان من يقف خلف القضية، وأما الجمهور فيكفيه أن يقرأ المطالب في البيان دون معرفة الجهة، واذا كان هناك ما لا تريد هذه الجماعات أن يرتبط بها من آثار سلبية للحادث فانها تكون قد تخلصت منه من خلال عدم تبني الحادث بشكل صريح ومعلن.

الاستنتاج الأخير الذي لابد من الاشارة اليه أن الجهات الاسلامية التي يعتقد أنها خلف الحادثين، قد أثبتت من خلال الحادثين أن لديها القدرة اللوجستية والفنية والبشرية على تنفيذ الحادث، وأنها استطاعت استغلال عنصر المفاجأة الى أقصاه، وأنها استطاعت كذلك التنسيق بين الحادثين وبكمية تدمير هائلة.

لم يتحدث الشيخ أسامة علنا، بل نقل عنه نفي مسؤوليته عن الانفجار. لكن يبدو أن الأمريكان كان لديهم استنتاج آخر توصلوا اليه منذ الأسبوع الأول بعد الانفجار، وهو أن الشيخ أسامة مسؤول مسؤولية كاملة عن الانفجارين، سواء اعترف أم لم يعترف. وبناء على تلك المعلومات قام الأمريكان بعمليتهم المشهورة في ضرب السودان وأفغانستان. حيث انهالت على السودان وأفغانستان عشرات صواريخ كروز موجهة لضرب هدفين محددين في ذلك البلدين. لكن هل كان الرد الأمريكي ذكيا؟

نظرة ثاقبة في القضية تظهر أن أمريكا أصبحت تنفذ دون أن تشعر أجزاء من فقرات برامج الجماعات الجهادية، تحولت الضربة الأمريكية الى عامل من عوامل تنامي الغضب والعداء ضد أمريكا في العالم الاسلامي، وهو عين ما تريده الجماعات الجهادية. فقد نجحت هذه الجماعات في استدراج أمريكا لهذه الضربة، لتحقيق ما كانت تتطلع اليه هذه الجماعات من تجييش للرأي العام الاسلامي ضد أمريكا، واثبات ندية هذه الجماعات لتلك القوة العظمى، ومن ثم تبرير صراع طويل المدى مع أمريكا بعد هذا التجييش، بغض النظر عن صحة أو خطأ تلك السياسة.

الطريقة التي عرض بها الأمريكان الضربة اعلاميا ورسميا كانت هي الطريقة التي تستميت من أجلها الجماعات الجهادية، وهي اظهار تلك الجماعات عموما والشيخ أسامة بن لادن خصوصا كخصم وند حقيقي لأمريكا وكقوة استطاعت أن تجبر واشنطن على التصرف بارتباك وتخبط.

الشيخ أسامة بن لادن لم يعد ذلك الشخص الذي تظهره بعض القنوات الأمريكية والغربية وتجادل من أجل الاقناع بأنه قوة يحسب حسابها، بل أصبح الآن البعبع الأول لأمريكا حسب تصريحات الرئيس الأمريكي والمسؤولين الأمريكان أنفسهم، ولقد شاهد الملايين في العالم الرئيس الأمريكي ووزير الدفاع ورئيس الأركان يحرصون على ذكر الشيخ أسامة بن لادن في خطبهم وأجوبتهم للصحافة من أجل تبرير الضربة. هذا التصوير وتلك الطريقة أعطت زخما قويا للمحسوبين على التيار الجهادي وخاصة أتباع الشيخ أسامة ابن لادن، ورفعت معنوياتهم وأشعرتهم كما لو كانوا قوة عظمى في مواجهة أمريكا، بل بدت تلك الضربات المستعجلة الخاطئة بمثابة دليل لهم على أنهم أفقدوا أمريكا صوابها فأصبحت تتخبط ولا تدري أين تضرب.

أما بالنسبة للرأي العام العربي والاسلامي فالقصة ليست بعيدة، حيث يعيش الناس أزمة بطولة وأزمة تضحيات وهم في انتظار من يشبع الشعور بالانتقام والتحجيم لأمريكا وارهابها، كما أرهبت المسلمين وضايقتهم في فلسطين والعراق والجزيرة وأفريقيا وتركيا وأماكن أخرى، ولذلك فقد كان منظر المسؤولين الأمريكان وهم يعترفون من خلال تلك الضربات بارتباكهم وخوفهم من الشيخ أسامة بن لادن، كان ذلك بمثابة اشباع لهذا الشعور ورفع شعبية الشيخ أسامة بن لادن، خاصة أن الشيخ اسامة ليس ممن يمكن أن يتهم بالعمالة مثل خصوم أمريكا المزعومين من حكام الدول العربية، فهذا الرمز الجديد تاريخه مختلف تماما عن تاريخ أولئك الزعماء، واذا أعلن مواجهة أمريكا فلا يشك أحد في صدقية هذا الاعلان. وقد لوحظت هذه الآثار عمليا بعد الضربة، حيث لم يعد من الحرج الأمني في كثير من البلاد العربية التصريح بالاعجاب بالشيخ أسامة وتأييده، أما في باكستان والمشرق الاسلامي فقد تجاوز الناس مجرد الاعجاب الى اعتباره قائدا ومخلّصا للأمة الاسلامية من هيمنة الأمريكان، وخرجت المظاهرات بصوره المرفوعة هناك.

خاسر آخر في هذه المعمعة هو الحكومات العربية التي تعيش تحت كنف أمريكا، فلقد بدت هذه الحكومات صغيرة بين قوتين عظميين أمريكا وبن لادن. وكأننا بتلك الحكومات عاشت حرجا شديداً أمام هذه الضربات الأمريكية فلا يمكنهم تأييدها فيثبتون العمالة المطلقة، ولا يمكنهم استنكارها فيظهرون اعترافا غير مباشر بالشيخ أسامة.

ولقد تبينت هذه المشاعر في الاعلام السعودي من خلال التجاهل الكامل من قبل التلفزيون والاذاعة والصحافة الداخلية في المملكة حيث أورد خبر الضربات مقتضبا دون أي اشارة للشيخ أسامة.

* كاتب وصحافي من الاردن